قال بلى : فأخبرك أنك تأتيه العـــام ؟ فقلت : لا قال : فإنك آتيه ومطوف به »(١) .

إن عمر رضى الله عنه لم يكن معبراً عن نفسه فقط فى هذا الموقف ، وإنما كان معبراً عن رأى جماعة المسلمين عدا أفراد قليلين ، منهم الصديق ، رضى الله عنه .

وقد اشتهر الصديق رضى الله عنه بهدوء الطبع ، واعتدال المزاج ، والغوص فى فهم أقوال الرسول ﷺ وأفعاله ، فلقد كان شديد الالتصاق به ، خالص الصداقة له قبل الإسلام وبعده ، مما أعانه على فهم الإسلام فهما يتميز به عمن سواه من الصحابة — رضوان الله عليهم ، فهما متسما بعمق النظرة ، وقوة التبصر المتأنى فى الأمور ، تحت رعاية المعلم ، الحريص على المؤمنين صلوات الله عليه وسلامه ، ومن هنا فقد أتى جوابه لعمر — رضى الله عنه مطابقا لجواب الرسول ﷺ له : [« فأخبرك أنك تأتيه العام؟ » فقلت : لا قال : فإنك آتيه ومطوف به »] .

ولا يقدح هذا فى عمر رضى الله عنه الذى اشتهر بحدة الذكاء ، وحدة الطبع ، والجرأة فى الحق وسرعة التنفيذ لما يعتقده الحق ، فى مضاء عزيمة ، وصلابة إرادة ، وقوة إيمان ، وحب لله ورسوله وللإسلام والمسلمين ، ولو عرضته هذه الجرأة للوم أو عتاب . فليكن ، فإنه لا يعمل ما يعمله إلا انبثاقا من حب الله تعالى ورسوله ﷺ .

ثم . أو ليس هو الذى بارك الوحى من قريب موقفه فى بدر ، ونزل القرآن الكريم موافقاً لرأيه ؟ فكانت هذه الموافقة هى الطاقة المتممة فى

---

(١) كتاب الشهادات .

عمر رضى الله عنه حريته ، وشجاعته فى الرأى ، انتصاراً للحق ، وللحق وحده .

على أى حال فلقد كان الصديق رضى الله عنه معلماً من معالم الأناة ، والتريث ، والصلابة فى الحق ، ودقة الفهم للأمور ، كما كان عمر — رضى الله عنه — معلما من معالم حرية الرأى ، والفكر والمعارضة النزيهة ، وهى صفات لا بد من اجتماعها متكاملة فى جهاز قيادة المسلمين الذى سيتولاه هذان الوزيران وغيرهما بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى لنشر الإسلام فى ربوع العالمين .

ويفرغ الرسول ﷺ من كتابة المعاهدة ، ويأخذ فى العودة بالمسلمين إلى المدينة ، دون أن يدخلوا البيت الحرام ، ويطوفوا به ، ويأمرهم — ﷺ بالتحلل من العمرة التى لم يؤدوها ، وأن ينحروا الهدى ، وأن يحلقوا فما يستجيب له أحد ، فيأمر ثانيا وثالثا فما يقوم أحد . ويدخل الرسول ﷺ هم ، وكرب شديدان ، بيد أنه ﷺ وهو الحريص عليهم لم يقابلهم بتأنيب أو تقريع ، ولم يواجههم بزجر أو تعنيف .

فلقد كان وهو القائد الماهر يشعر بما يشعرون به ، إنها صدمة عنيفة ، أطاحت بآمالهم وأمانيهم ، كم كانوا فى شوق إلى رؤية البيت الحـــرام ، والطواف به ، وكم أرقهم الحنين إليه وإلى رؤية ذويهم ، والمتعة بحلول فى مبتدى نشأتهم ، وصباهم ، وشبابهم ، كما امتلأت نفوسهم سعادة وبشرا بهذه البشرى التى زفها رسول الله ﷺ إليهم بالمدينة وكل منهم يسوق الهدى ، كم مضى عليهم من السنين الطوال فى صعاب ، ومكابدة ، بعيدين عن بلد الله الحرام . .

ثم جاءت معاهدة الحديبية لتطيح بكل هذه الآمال ، حتى جعلتهم فى ذهول عن سماع أوامر الرسول ﷺ بالعودة إلى المدينة .

لكن الرسول - ﷺ - وهو المربي لنفوس هؤلاء، يعلم ما تنطوي عليه هذه النفوس من شديد الحب لله تعالى ولرسول الله - ﷺ -، وحسن الاتباع له والمبادرة إلى تنفيذ أوامره، يدخل على أم سلمة زوجه رضي الله عنها، حاملا همـــه وكربه بين جنبيه، وذاكرا لها ما صنعه الناس بأوامره. فأشارت رضي الله عنها أن يخرج صلواته وسلامه عليه إلى الناس دون أن يتكلم، فينحر ويحلق. فإذا رآه المسلمون يفعل ذلك بادروا إلى تلبية أوامره.

جاء في حديث البخاري سالف الذكر: «فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى سأل ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس.

فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما».

لقد أرادت أم سلمة رضي الله عنها بهذا الرأي التي أشارت به على الرسول صلى الله عليه وسلم أن توجه إلى المسلمين إنذاراً يهزهم حتى يستيقظوا من ذهولهم. فماذا بعد أن يصدر الرسول ﷺ أمره إليهم في صورة عملية تطبيقية.

وقد صح ما رأته أم سلمة، حيث استيقظ المسلمون ليلبوا أمره ﷺ على الفور.

فهل يمكننا تسمية هذا الموقف من المسلمين بموقف المعارضة الجماعية الدال على تأصل الحرية فيهم، وإحساسهم بكيانهم الذاتي؟.

نعم .

هو كذلك ، وسواء كان المسلمون هنا معذورين ، أو غير معذورين فى هذا التصرف ، فلقد دخلوا تاريخ الأديان ليكونوا فيه أول الأمم التى تفخر على مدى الدهر بكونها تعلمت من رسولها ﷺ أن لها حق المناقشة له ﷺ ، وحق التعبير عن آرائها ، وحق الاعتراض على مالا ترضاه عما لم يتأكد حكمه بعد .

وهو ما يقدم للمسلمين فى كل زمان ومكان مبدأ مناقشة رؤسائهم ، وزعمائهم والتعبير عن آرائهم ، دون تعصب أو ميل ، بهدف الوصول إلى الحق(١) .

٥ — حماية الإسلام لحرية المسلم :

ولئن غرست التربية الإسلامية هذه المبادىء فى نفوس المسلمين(٢) ، فلقد ظلت تتعهدها بالحفظ والرعاية ، كى تظل فيهم طاقات قوية ، تثبت فيهم دوما قوة شخصيتهم وحريتهم .

---

(١) وتتوالى الأحداث بعد هذه المعاهدة لتؤكد حسن سياسة الرسول ﷺ فى هذه المعاهدة ، فيعود المسلمون إلى مكة معتمرين فى العام القابل ، ويتوفر للإسلام المناخ السلمى ليدخل الناس فيه أفواجا ويدخل فى الإسلام فى المدة من هذه المعاهدة حتى نقض قريش لها أضعاف أضعاف ما دخله من الناس من مبتدى أمره فى مكة حتى عمل هذه المعاهدة وتنقض قريش المعاهدة ليفتح المسلمون مكة ، ويحطموا ما بها من الأصنام وتكون كلمة الله هى العليا .

(٢) راجع الجزء الأول العدد السادس لحولية الكلية .

إنه ما دامت عقيدة المسلم قوية نشطة ،فقد امتلك بها كنوز الفضائل ، وما العقيدة والأخـــلاق إلا الحصن المنيع الذى تعيش فيه حرية المسلم : وشخصيته،ويوم تضعف عقيدته وأخلاقه ،يوم تضعف شخصيته،يوم يصاب بالوهن فينقد إرادته ، ويتحول بعدها إلى آلة فى يد غيره يصنع بها ما يشاء.

إن شخصية المسلم مرآة ترى فيها دينه وخلقه ، فإن كان قوى العزيمة لا تأخذه فى الحق لومة لائم ،صادق القول، والعمل،صائب الرأى، صاحب منطق وحجة ، فقد رأيت عقيدة سليمة ،ونفسا أبية، وأخلاقا مصفاة .

أما إذا كان ضعيف الإرادة ، كذابا ، متلونا ، جبانا،متملقا ، مراثيا ، منافقا فلقد رأيت عقيدة هشة ، وأخلاقا لامكان لها بين أخلاق الإسلام.

وكما قال المثل العربى « كل إناء بما فيه ينضح » ومثل اخر « إنك لاتجنى من الشوك العنب » .

فهيهات هيهات أن ترى عزة لكذاب ، أو كرامة لمتملق ، أو أنفة لمداهن ، أو وجها واحدا لمنافق،أو حرية رأى لتابع ذليل .

وآفة الآفات التى تصيب المسلم فى شخصيته هى الكذب ، وهو أصل الفجور كله ، وسبب أمراض القلوب من نفاق ورياء، وجبن .

وصدق الرسول ﷺ فى حديثه الشريف : « وإن الكذب يهدى إلى الفجور وأن الفجور يهدى إلى النار ومايزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

والكذاب هو الذى يخبر الناس بخلاف ماهو عليه ، يقلب الحقائق ، ويطمسها ، ويتقول على الله مالم يقله ،وينسب إلى الناس ما ليس فيهم .

وشر الكذابين من يجيدون إخراج الكلام المنمق الذى يخفى خلفه الخداع والفسق ، ومن يستطيعون صوغ العبارات المزخرفة التى ظاهرها رحمة وباطنها عذاب ، وعلى رأس هؤلاء الأشرار طبقة المداحين بالزيف والبهتان .

هذه الطبقة هى التى ابتليت بها المجتمعات الإسلامية قديما وحديثا ، وكانت على رأس أسباب فساد رؤسائها وزعمائها ، وأفرادها .

هى المسئولة عن كبرياء ، وغطرسة ، واستبداد . . . زعماء المسلمين وقادتهم . . .

هى المزلزلة لكيان الإرادات الحرة ، والمقوضة لاستقلال الأفراد والجماعات . . .

هى التى تخلع على الفساق ، والمجرمين ، وهاتكى الأعراض ، . . ألقاب الصلاح والتقوى والشرف . . . وتلبس للجبناء الفرار أثواب الفروسية المرصعة بأوسمة البطولات المزيفة . . . وتصف الجلادين لظهور الأبرياء ودعاة الحق ، بالأمناء على الأمن والحريات . . .

إن عملية المدح المزيف ، عملية نفخ كاذب ، فى نفسية الممدوح ، لاسيما إذا كان رئيسا ، أو زعيما ، أو قائدا . . .

تقذف فيه الزهو ، والعجب والكبرياء . . . فتتعالى نفسه ، وينظر إلى من عداه على أنهم دونه . . فعليهم السمع والطاعة له . . ولو كان مخطئا ، أو ظالما . . . هو ذات فوق السؤال ، والنقد ، والمحاسبة . . . هو فوق الشبهات ، الصادق وغيره الكاذب ، المعصوم عن الخطأ ، وغيره المخطىء .

والويل لمن تسول له نفسه أن يعترض أمره ، ولو باشارة ، أو يقف فى طريقه ولو بمجرد لفتة . . . حتى ولو كان هذا المعترض ، أو الملتفت عالما مخلصا ، أو فيلسوفا ماهرا . . . لأن المدح المزيف جعل من هـــذا الرئيس ، والزعيم المستبد فيلسوفا فوق الفلاسفة ، وصاحب نظريات ، ومبادىء . . . بينما يعلم المطلعون على نشأته ، وتاريخه مدى فلسفته ، ومدى علمه . . إن كان لديه علم أو فلسفة . . .

ألم تسمع عن أفراد من الآدميين فى النصف الثانى من هذا القرن ، جعلت منهم طبقات المداحين ، والهتافين ، زعماء فلاسفة، أصحاب نظريات، ومبادىء ، من بين هؤلاء ، من اجترأ على الدين ، وعلى رسول الإسلام، وعلى إجماع الأمة ، فشكك فى السنة النبوية المطهرة ،وأن تكون المصدر الثانى للتشريع الإسلامى بعد القرآن الكريم .

أو لم يكف هذا الزعيم الفيلسوف أن اعتدى على خزائن مجتمعه التى كانت تنوء بحمل مفاتيحها العصبة أولو القوة، فأنفقها على أهوائه وشهواته، وسخرها لإشعال الحروب هنا وهناك .

ولكنها نفخة المدائح الكاذبة ، والاستبدادية العمياء .

ثم ألم تسمع عن آخر من هـــؤلاء من أنه فيلسوف . له نظرياته ، ومبادئه ، وأفكاره ، بالنسبة إلى السياسات الوطنية ، والقومية، والعالمية، وغيرها ، وأخيرا تصنع له بطانات المنتفعين من نهب وثروات ، وخيرات المجتمع ، حزبا يدعون الناس إليه ، على الرغم من أن هذا الفيلسوف المزعوم هو صانع الهزائم ، والدمار ، السياسى ، والحربى، والمعيشى الذى حل بالمجتمع الذى رأسته فيه طبقات المداحين والهتافين .

وحدث هنا ولا حرج عن هذا المجتمع الذى قبر فيه هذا الفيلسوف كل رأى حـــر ، وقصف فيه كل قلم مخلص مجاهد ، ووأد فيه كل حركة إصلاحية ، وسلط فيه جاسوسيته البغيضة لتحصى على الناس أنفاسهم حتى النائمين منهم على أسرتهم فى مخادعهم .

وقبيل حلول هذا النصف من هذا القرن، كانت هذه الطبقة من المداحين تزاول مهمتها الرخيصة عندما خلعت القناب الطهر والشرف على رأس الفساد ، وكبير الفساق، والمقامرين ، وهتاكى الأعراض فنسبته إلى البيت النبوى الشريف .

فأى كارثة بعد ذلك أفظع وأخش من هذه الكارثة، بل إنها لكوارث قوضت هذا المجتمع ، ونخرت فى عظامه ، كوارث التضليل ،والتزييف، وقتل الإرادات ، والسطو على الخزائن والقصور والأراضى، وفشر الرعب، والفزع ، باستعمال البطش ، والقتل والتجويع .

هـــذه بعض آثار الفطرسة ، والاستبداد ، والرأى الأوحد ، وكلها خناجر مسمومة تمزق شخصية الأفراد ، والجماعات وكلها نتيجة عوامل على رأسها المدح ،إ المزيف والهتافات التى صاغها الحكام وأعدوها لخدمة مصالحهم !!

إن طبقة المداحين، ليست بجديدة على المجتمعات الإسلامية ، هى موجودة منذ القدم ، فى عهود ما بعد عهد الخلفاء الراشدين ، فى لقاءات الخلفاء ، والزعماء الأمويين ،والعباسيين ، والفاطميين وغيرهم ، قام بها الشعراء والأدباء ، وغيرهم ، لقاء أجور . وخدمات ، ومعظمها كان على حساب الأمة ، ودينها .

بيـد أن آثار هذه الطبقة كانت محصورة إلى حـد ما ، وداخل نطاق البيئة المحدودة ، وإذا تجاوزت هذه البيئة إلى بيئة أخرى، فبعد مضى وقت يطول أو يقصر .

لكنها الآن ، قد استفحل أمرها ، وعظم خطرها ، واشتد فسادها ، بعد أن صار زيفها يرى ويسمع فى مساحات واسعة من الأرض ،تشمل، الأقطار والأمم ، والقارات ، وذلك فى لحظة أو لحظات من إطلاق هذا الزيف ، وذلك بعد تقدم وسائل الإعلام ، والإذاعات ، والنشر فى هـذا العصر .

كما أن هذه الطبقة لم تعد الآن مقصورة على أفراد أو جماعات ، وانما أضيف إلى ذلك مؤسسات حكومية ، وإعلامية ، وثقافية وتربوية ، وكلها مسخرة لتوجيهات الرأى الواحد ، وإعلان شأن الزعيم الأوحد، والإشادة

بأقواله ، وأعماله وحده ، وتقبيح ، وتحقير كل قول ، أو عمل آخر ، أو رأى معارض يطالب بتحكيم المنطق ، والحجة ، والشورى الصحيحة . إنها أجهزة سوء ، تضافرت كلها على تدمير الشخصية الإنسانية ووأدحرية الأفراد والجماعات .

وهو ما زاد من تمكن الديكتاتورية ، والاستبداد ، وزاد بالتالى من خنق المجتمعات وقطع السنتها ، وشفاهها ، وحرياتها ، ومصادرة آرائها . فكان ما كان مما هو مشاهد الآن وفى المجتمع من ويلات الدمار السياسى والاقتصادى والاجتماعى ...!

أنه لو طالبت هذه المجتمعات بمحاسبة المداحين ، والهتافين ، قبل محاسبة الممدوحين والمستبدين لما جاوزت الحق ، ولكان هذا أمرا طبيعيا وهى تقضى على السبب حتى يقضى على المسبب .

إن أية تشريعات تعد لحربات المجتمعات الإسلامية ، والقضاء على الاستبدادية فيها يجب أن يكون فى قمة قائمتها القضاء على طبقات المداحين ، والهتافين ، المزيفين ، وردع الكذابين ، والمنافقين ، وتطهير وسائل الإعلام والنشر من التسبيح ، والتحميد والتكبير لغيره تعالى .

٦ — رأى الدين فى المداحين :

نعم ، ليس المديح مذموما على إطلاقه ، فهناك المديح الصادق ، الذى يبتغى وجه الله ، واظهار الحق ، وتوضيح الحقائق ، والمسارعة إلى الخير ، والذى يتجرد من النفاق ، والنقيصة ، والمدح بالنسبة لله تعالى ورسوله ﷺ عام غير مقيد ، فهما إذا مدحا أمرا فهو الممدوح حقا ، وصدقا ، لأنهما منزهان عن الكذب ، فمن أصدق من الله تعالى قيلا ، ورسوله ﷺ على خلق عظيم ، والقرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة يفيضان بمدح الأنبياء والمرسلين والصالحين ، والإشادة بأعمال الخير فى كل زمان ومكان ،

هداية للناس ، وتعليما لهم ، وتربية لنفوسهم ، وعقولهم ، ولا ننسى فى هذا المقام حث القرآن والسنة على تربية الإرادة الحرة ، والشخصية المستقلة ، كما هو موضوعنا هذا .

كما أن من المدح ، ما هو واجب ، كأن يشكر الناس خالقهم ، ويثنوا على آلائه ، ونعمه ، وعلى أنبيائه ورسله ، وعلى أعمالهم وأعمال الصالحين ، التى هى المدارس الحقيقية لتزكية النفوس ، وتطهير العقول والقلوب من أمراض الجهل والحقد والنفاق .

أما مدح الأفراد بعضهم لبعض . فهو مقيد ، وفى إطار معين ، وقد أجازه الإسلام على قواعد معروفة ، وفى حدود معينة ؛ فإذا برىء المديح من المداهنـــة ، والكذب ، وطمس الحقائق ، وتنزه عن الإغواء ، والتزييف ، وإيجاد العجب ، والكبرياء ، ولم يؤد إلى تجميع طبقات الأمعات ، وتأليف جمات الغوغائية ، والهتافين ، وإذا لم يعمل على مساندة الظلمة ، وإعانة الجبابرة ، وتحبيب الناس فى الفسقة ، وإذا لم يكن عقبة أمام الحق ، والصدق ، والخير للناس جميعا ، وإذا لم يعمل على إذلال المـادح وإهراق ماء وجهه .

فهو المديح الممدوح ، وما عداه فهو المذموم .

وحتى المدح الممدوح بالنسبة للأفراد بعضهم لبعض ، حظر الإسلام من الغلو فيه ، وألا يأتى المادح بعبارات المديح على وجه القطع ، فعليه أن يقول إن اضطر إلى مدح أحد ، « أحسب فلانا كذا » ، وكذا إذا رأى أن فى هذا مصلحة عامة .

وإليك نصوصا من القرآن الكريم والسنه المطهرة فى هذا المقام .

قال تعالى : « ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا »(١) .

---

(١) النساء ٤٩

وقال تعالى : « ... فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى »(١) .

ومعنى تزكية الإنسان نفسه ، أو غيره ، أن يمدحه، وأن يمن بأعماله ، وأعمال غيره .. قيل : نزلت الآية الأولى فى اليهود ، حيث قالوا ليس لنا ذنوب فأنزل الله تعالى «ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم...» ، وقيل نزلت فى ذم التمادح والتزكية ، وفى الصحيحين من طريق خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن ابى بكرة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يثنى على رجل فقال : « ويحك قطعت عنق صاحبك » .

ثم قال : « إذا كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة فليقل أحسبه كذا ، ولا يزكى على الله أحداً »(٢) .

وفى الحديث الشريف « .. من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، وإن هذا المال حلو خضر فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه ، وإياكم والتمادح فإنه الذبح »(٣) .

وروى ابن جرير بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : ان الرجل ليغدو بدينه ثم يرجع وما معه منه شيء ، يلقى الرجل ليس يملك له ضرا ولا نفعا فيقول له : إنك والله كيت وكيت فلعله أن يرجع ولم يحظ من حاجته بشيء ، وقد أسخط الله تعالى ثم قرأ «ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم» الآية .

وقال ﷺ « لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم »(٤) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن همام بن الحارث قال : جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه فى وجهه قال فجعل المقداد بن الأسود يحثو فى وجهه التراب ويقول : أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثوا فى وجوههم التراب ، ورواه مسلم وأبو داود من حديث الثورى عن منصور به(٥) .

---

(١) النجم ٣٢
(٢) تفسير ابن كثير فى سورة النساء
(٣) المصدر السابق
(٤) ابن كثير فى تفسيره
(٥) المصدر السابق

نعم : ثم نعم ، فلو استجاب المسلمون لأمر رسولهم ﷺ ، بأن يوجدوا تشريعا جادا بأن على المسلمين أن يحثوا التراب فى وجوه المداحين لقضوا بذلك التشريع على طبقات النفعيين، والوصوليين والمداهنين ، والهتافين .. فأوجدوا بذلك المناخ السليم، لمعرفة الناس على حقيقتهم ، ووضوح الحقائق وعدم طمسها .. وتمكين الآراء الحرة من الانطلاق، والاعلان عن نفسها .. وبناء الشخصيات المستقلة التى تقول كلمة الحق ولا تخشى فى الله لومة لائم .

٧ — حرية الإنسان من خلال عقيدة الإسلام وشعائره :

نعم . وكما تقول : الإسلام دين التوحيد ، ودين الاخلاق ، والقيم الرفيعة . قل ، ومعك كل الحجج ، والبراهين .

« الإسلام دين الحرية » .

وإذا كانت « الديمقراطية » فى أوج قمتها ، تقوم على حرية الفكر ، والاعتقاد ، والرأى . . السليم ، وتحارب كل ما يكبل الإنسان من قيود الذلة ، والتبعية لغيره دون وعى ، وتبصر . . . وترفض كل ما يخمد فى الإنسان رأيه ، ويقبر فيه همته ، وعزيمته ... فقل إن الإسلام فوق هذه الديمقراطية لأنه أقرها فى أعظم صورها منذ أربعة عشر قرنا ، وطبعها بطابع القداسة ، كما تقدم .

الإسلام : دين الحرية ، لأن كلمته الأولى ، تدعو إلى الحرية ، والعزة .. « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

ولا معنى لهذه الكلمة سوى افراده تعالى بالالوهية ، والربوبية ، ولا معنى لهذا التأليه والتربيب إلا الطاعة ، والانقياد لمن بيده ملك السموات والأرض ، والقادر على إبقائهما ، أو إزالتهما .. « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار »(١) .

---

(١) إبراهيم ٤٨

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده »(١) .

فهو سبحانه وتعالى وحده المتصرف فيك، وفى غيرك، وكل من سوى الله فهو مستوى معك فى هذا التصرف الإلهى، لا فرق فى ذلك بين كبير وصغير، ولا بين رسول ومرسل إليه .. « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا .. »(٢).

فالإيمان بالله عز وجل خالقا، ومالكا، ومتصرفا، وقادرا . . . على وجه مطلق، لا قيد فيه لا معنى له إلا الاعتزاز به وحده، ولا معنى للاعتزاز به وحده إلا نفض اليد كلية من الاعتزاز بأى قوة سواه، وعدم الاعتماد على أى مخلوق فى الأرض أو فى السموات .

ولا معنى لهذا الاعتزاز به وحده . . إلا أن تستغنى به عمن سواه، فهؤلاء لا ولن يملكوا لك رزقا، ولا تقدما، ولا تأخرا، ولا موتا، ولا حياة .

فهل يوجد شىء غير هذا فى الوجود كله، يمكن له أن يخيفك من ظالم، أو يقعدك عن مجابهة الباطل أو يثنيك عن التصدى لأعداء الله تعالى أو يمنع لسانك عن قولة الحق، ولو أصمت آذان الجبابرة وأعمت عيون المستبدين .

إذا شككت فى هذا مجرد شك، فانظر إلى علاقتك بالمعز المذل.. فلقد حدث فيها شىء عليك بتبيانه، ومعالجته، فإذا تقاعست عن هذه المعالجة، فلقد عرضت عقيدة الاعتزاز بالله عز وجل للضعف والنقصان، والإيمان يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخل صاحبه النار، كما جاء فى الحديث الشريف .

وكلمة الإسلام الأولى مكونة من كلمتين، أولاهما « لا إله إلا الله »، وثانيتهما : « محمد رسول الله »، والأولى دالة على الاعتصام به وحده كما بينا .

---

(٢) فاطر ٤١ (٣) الإعراف ١٨٨

أما الثانية فقد جاءت ممثلة للتطبيق لهذا الاعتصام ، فما محمد ﷺ إلا النموذج الحي للاعتزاز بربه ، وهو عليه السلام القمة في هذا ، في حياته ، وجهاده ، وتصديه لأعداء الإسلام .

حياته عليه السلام كلها إباء ، وكرامة ، وانظر إلى ثباته عندما وقف وحده في وجه المشركين ، يوجه اللطمات القاسية لعروض المال ، والملك ، والرئاسة ، كي يترك دعوته إلى الله عز وجل فيقول : «والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ماتركته حتى يظهره الله أو هلك دونه »(١) .

لقد جاءت كلمة «محمد رسول الله» موضحة ومقررة ، ومؤكدة عمليا معنى الاعتزاز بواهب الحياة .

هذه هي عقيدة التوحيد ، يستضيء بها قلب المؤمن ، فيذهب ما به من خوف غيره ، تعالى ويقضي على ما فيه من الاتكال على غيرقوته تعالى ، وينطق لسان المؤمن بكل ما يرضي الله تعالى ولو أسخط أهل الأرض جميعا ، إنسهم ، وجنهم ، وملوكهم ، ورؤسائهم .

أما عبادات هذا الدين ، فهي مدارس نموذجيه ، ترشد العقل ، وتصحح الفهم ، وتزكي النفس ، وتطهر الروح ، من سائر الأسقام ، هادفة من وراء ذلك إلى إدامة الاتصال الحق بالله تعالى ، واستمداد العون منه عز شأنه .

فهي عبادات كل ما فيها من فرائض وسنن ، يدعو إلى كرامة الإنسان ، ويؤكد فيه عقيدته ، ويؤصل فيه شخصيته .

فالصلاة مثلا جاءت في الإسلام على صورة تحقق هذا الهدف ، لقد

---

(١) سيرة ابن هشام

جاءت بتكبير الله وحده ، وما تكبير الله تعالى إلا تعظيمه ، والاستعانة به عما سواه .

فلم ابتدئت الصلاة بالتكبير ، ولم صاحبها هذا التكبير فى أركانها ، فى بدئها ، ورکوعها ، وسجودها ووقوفها ،وقعودها .

لم تكرر فيها هذا التكبير ، والتحميد، والتهليل .

ولم كانت لا تنعقد إلا بالتكبير ، ولا تصح إلا بتكبيرة الإحرام .

ولم كان الأذان للصلاة فى اليوم والليلة خمس مرات ، مشتملا على ست تكبيرات ، مبتدئا بأربع ومختتما باثنتين بعدهما كلمة التوحيد .

هل لذلك معنى إلا إيجاد المسلم العزيز .

هل لذلك معنى إلا خلع المسلم من ربقة العبودية لغيره تعالى، وتجرئته على مجابهة الباطل ، ونصرة الحق ، ومعه رب العالمين، ولو كره الكافرون والظالمون الطغاة .

نعم : من أى شيء يخاف المسلم والله تعالى يقول :

« ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم »[1] .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

أ . د . ابو المجد السيد يوسف نوفل

---

(١) فاطر ٢